

## حضور سيدي لخضر بن خلوف في المخيال الشعبي.

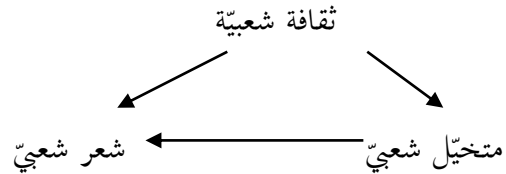
الأستاذ: بن معمر بوخضرة، جامعة تلمسان.

مقدمة :

تبحث هذه الدراسة أصل تمثيلات المخيال الشعبي لشخصية سيدي لخضر بن خلوف؛ ليس كقيمة أدبية شعرية وفق أطر أدبية نقدية، وإنما كنسق ثقافي واجتماعي وسياسي ونفسي. إن التمثيل الرمزي لهذه الشخصية في المخيال الشعبي؛ يتحدى الإطار الأدبي والخيالي والجمالي باعتباره نفثة روحية؛ أعطت للتصوف في الجزائر طابعه الخاص. إنها شخصية تطوف بروحها الممتدة عبر الجغرافيا والتاريخ في الجزائر وفي منطقة المغرب العربي، فهو ليس بعيدا عن ذلك التمثيل لشخصية عبد القادر الجيلاني وأبي مدين شعيب. تتطلب منا الزاوية التي طرحنا من خلالها هذا الموضوع الإجابة عن عدة تساؤلات منها:

- ما نوع الحضور لشخصية لخضر بن خلوف في المخيال الشعبي؟
- هل كانت الفئات الشعبية تنقب عن حياة الولي، أم كانت تنقب عن ذاتها المستأنفة في طيات حديثها عن الأحداث التي أحاطت بهذه الشخصية؟
- لماذا ظلت الذاكرة الشعبية محتفظة بهذه الشخصية حتى وقتنا الحالي؟

وهذا ما سوف نتناوله في هذا الموضوع. هذه تساؤلات سنحاول الإجابة عنها من خلال هذه المداخلة. لا شك أن الثقافة الشعبية؛ قد تأثرت تأثرا كبيرا بحركة التصوف بوجه عام، والطرق الصوفية بوجه خاص، لكن ثمة حدود فاصلة بين التصوف كعقيدة ومنهاج تعبدية، وبين الثقافة الشعبية التي تنتشر من روافد متعددة في تناسق عجيب؛ يتعسر معه الفصل بين هذا التداخل المتشكك من الدين والثقافة ونشاط الأفراد اليومي، وعبر محيطة تعيد إنتاج التمثيلات الشعبية، والتي تظهر على شكل أساطير وأحكايات أو شعر شعبي. كما هو موضح في هذا الشكل:



فهناك شيء يجمع بين هذه العناصر المشككة للمستحيل الأمر الذي يتعلق بطبقة الأفراد وتصنيفاتهم\*.

ولهذا وجدنا بأن الموضوع يحتاج إلى إضاءات منهجية؛ لا بد من توضيحها في هذا الباب منها:

### 1- حدود المخيال: يتسع الحقل المدلولي لكلمة المخيال لعدة معان تتقارب أو تتباعد. ولكن تشتغل

ضمن شبكة رائدة من الدلالات، وتفتح في إحيائها على عدة حقول معرفية؛ فالكلمة الأجنبية (*imaginaire*) تترجم بالخيالي والخيال والمخيال والمتخيل.

ويرجع سبب هذا الاختلاف إلى حداثة المصطلح في الحقل الأنثروبولوجي خاصة وإلى عدم ثباته حتى في الاستعمال الفردي إذ "إن مفهوم التخيل هو جديد وذلك لأنه حتى الاختصاصيين لم يتوصلوا إلى بلورة حدوده أو تحومه، كما لم يتوصلوا بعد إلى تحديد وظائفه بشكل دقيق تماما، ولا تحديد مستويات تجلياته، أو تجليات تلك الملكة التي ندعوها بالخيال (*immagination*)".<sup>1</sup>

وفي هذا المجال وجدنا بأن الحقل الأنثروبولوجي هو من أكثر المناهج تحديدا لهذا المصطلح؛ لأن الأنثروبولوجيا تقهر في فضائها علوما مختلفة، كما لا تستبعد الظلال الحاضرة أو الغائبة لمعناه في فضاءات أخرى، والخيال في الحقل الأنثروبولوجي هو أحد المفاتيح التي اتسعت بمعرفة النفس الإنسانية والتنظيم الاجتماعي.<sup>2</sup> لكن بما أن المسألة في موضوعنا هذا تتعلق بشخصية سيدي لخصر بن خلوف، وهي شخصية دينية ووطنية وشعبية؛ توجب علينا الصرامة كل تحديد مصطلح الخيال في حقله أكثر دقة وعمقا، وهو الخيال الديني الشيعي.

**\*-الخيال الديني :**

عندما نأتي إلى التخيل العربي الإسلامي كحقل إجرائي؛ نلمس ذلك الحضور الفاعل للاعتقادات التي تعمل بشكل خفي غير فيه "حيث هناك حقيقة عميقة تحيا في ظل الآلية التيو-أخلاقية للإسلام".<sup>3</sup>

فالخيال الديني هو قناة إمداد يلجأ إليه الإنسان بغية خلق توازن نفسي حتى لا تتصدع العقيدة عنده؛ فينشط الخيال لترسيخ الدين، وبلورة الصمير الديني الناشئ، ويجعل المجتمع المسلم يحقق توازنه في تنظيمه الداخلي، وفي علاقته بالكون في ضوء توزيع جديد للأدوار، وإخفاء مستحدث للقداسة على عناصر الفضاء المحيط، وبهذه الصنعة ظهرت منظومة من التصورات المتلاحقة والمتكاملة تكون فيها الخيال الاجتماعي بألوان الخيال الديني.<sup>4</sup>

**\*-الخيال والأسطورة :**

من المهم في هذا المقام أن نوضح معنى العالم الأسطوري الموجود في كل الثقافات الإنسانية، والمتميز بالمثالية والكونية في أساطيره المشكّلة من شخصيات بطولية *figures* وأحداث محفوظة بالتقاليد الشفوية لدى المجتمعات القديمة، المجتمعات الدينية والمجتمعات الحديثة. هكذا يشتغل الخيال موظفا هذه الأساطير، غير أنه وإذ ذاك يحاول القيام بقفزة أسطورية؛ تصنع أو تعود إلى الزمن والفضاء الأصليين؛ زمن موسى والتاجين عند الخروج، أو زمن ما قبل النزول، زمن الجنة أثر خطيئة آدم، فصارت الجنة المفقودة أول أسطورة يصنعها الخيال المسيحي.

إن الإنسان كثيرا ما يختلق أساطير يحتاجها مخياله المدفوع بقوة الحياة، ليضمن توازنه النفسي، ونلاحظ بذلك أن التجربة المخيالية، وتجربة الوجود الفعلي يتوازنان في الأهمية بالنسبة له؛ بحيث أن تلك الأساطير هي جزء من وجوده النفسي (تجربة ليلية)، وبالتالي فإن الخيال بانضوائه تحت معنى بنيته المختلفة عن بنية عالم التجربة الوجود الفعلي، ينتمي إلى عالم ليس خياليا، حسب ملاحظة *MIRCIA ILIADE* المختص في تاريخ الأديان "تجربة الخيال بناء للإنسان تماما مثل التجربة النهارية، والأنشطة العملية على الرغم من أن بنية واقعه لا تتوافق في الحقائق الموضوعية للوجود الفعلي، فإن عالم الخيال ليس خياليا".<sup>5</sup>

وعلى ضوء هذا التوضيح المنهجيّ سنرى كيف نشكّل المخيال من شخصيّة سيدي لخضر بن خلوف من خلال الانزياح الذي حصل ضمن روايات كثيرة؛ نستطيع من خلالها أن نحدّد المنحى الذي يتّجه إليه أيّ مجتمع في رحلته التاريخيّة إذ "لا شك أنّ التّبصّر في مدارات المخيال؛ يساعد على تبيّن ملامح الأجيال المتعاقبة داخل الفضاء الإسلاميّ في مجاليّ التّصور والتّمثّل من جهة وفي سياق التّفكّر والتّفكير من جهة أخرى؛ فالروايات تستند إلى مدلولات وتهدف إلى تحقيق غايات محددة."6

غير أنّ الوصول إلى هذه الأهداف يحدّد علينا الكشف على حيثيات زمنيّة؛ عاشها الشّاعر ففي زمن سيدي لخضر بن خلوف كان الشّعْر منقسمًا إلى ثلاثة طبقات: الطبقة الأولى: تمثّل رجال الدّين والفقهاء، الطبقة الثّانية: تمثّل السّلاطين والأمراء، أمّا الطبقة الثّالثة: هي خاصّة بعامّة النّاس الذين كانوا يدونون ما يختلج في قريحتهم المعبّرة عن أغوار المجتمع الذي عاشوا في كنفه، فرغم انتقال أشعار سيدي لخضر بن خلوف مشافهة إلّا أنّها لاتزال محفوظة في ذاكرة الأجيال نظرا لقوّة نظمها، وما تميّز به من إلهام يغذي المخيال الشّعبيّ بما يحتاج إليه في تحقيق كثير من التّوازنات العقليّة والدّينيّة والحياتيّة مثله مثل شعراء زمانه أمثال: عيسى لغواطيّ، بن مسايب، بن تريكيّ وآخرون.

#### \*-المتخيّل الصّوفيّ :

لا شك أنّ الخيال هو المحرّك الأوّل للرّؤية الصّوفيّة، وقد تبلور بشكّله الكامل مع تنظيرات الشّيخ ابن عربيّ الذي يشبه الخيال "بأرض لا نهاية فيها للعجائب والغرائب، يوجد فيها من المجال عقليّ، ويسمّيها مسرح عيون العارفين، وفي هذه الأرض عالم على صورة الإنسان إذا أبصره العارف يشاهد فيه نفسه، وفي هذه الأرض يتمّ التأكّد من أنّ العقول قاصرة، ومن إمكان الجميع بين الصّدين أوإمكان وجود الجسم في مكانين، ومن قيام الصّورة بنفسها، وقيام المعنى بنفسه."7

فالوجود يتشكّل عبر الخيال الذي يعتبر البرزخ بين المجهول والمعلوم، والوسيط بين عالم الحقائق الرّوحيّة وبين العالم الحسيّ والمعلومات تبعًا لذلك ثلاث الوجود والمطلق الإلهيّ، والعدم المطلق، والوجود الخياليّ، وهو البرزخ بين الوجود والعدم، وموطن الممكنات التي لا تنتهي.<sup>8</sup> فالإنسان يستطيع بالتخيّل أن يعيش حالات تتجاوز العادي والطبيعيّ، وتخرق القوانين التي تضبط سير الأشياء فلقد "الحق الصّوفيّ بمبدعات الخيال خرق العادات وعلم السّحر."<sup>9</sup> فالخيال هو الرّابط أيضا في بعده الكونيّ بين العالم والله عن طريق الإدراك الذي يحصل بالقوى المتخيّلة، ففي النزعة الصّوفيّة تؤول الفكرة الأولى "إلى اعتبار الخلق تجلّيًا، بحيث يبدو فعلا نابعا من القوّة التّخيليّة المقدّسة."<sup>10</sup>

فالمخيال في الرّؤية الصّوفيّة يعتبر استمرارا للطّرح الأساسيّ الذي يقسم الأشياء إلى ظاهر وباطن أرواح ومادّة، ومعقول ومحسوس، وأبدّي وفاني، وثابت ومتحوّل، ففي هذا الفضاء الواسع يتحرّك المتخيّل، وفي الخطاب الصّوفيّ يظهر ذلك من خلال علاقة القدسيّ بالدنيويّ (المتخيّل) باعتبارهما قطبين لمسار واحد أوبؤرة التّوتر لعلاقة الفاني بالأبدّي، والبشريّ بالإلهيّ، والكرامة الصّوفيّة التي تشكّل الحكاية، والمتن الذي يروي مغامرة الارتقاء من

التقص إلى الكمال؛ الانفتاح إلى العالم العجائبي والغريب، هي مظهر من مظاهر المتخيل، إذ تنتمي إلى الحقل المعرفي الصوفي، وإلى علم الجغرافيا الصوفية (الباطنية)، ومن هنا تبدو حيوية مصطلح المتخيل لمقاربة الخطاب الصوفي.

### \*-المخيل والنظرية الكرنفالية:

إنّ نظرية الكرنفال قبل كلّ شيء، تتمثل في أكثر الأشكال موضوعية، والتمثيل الممكن والكفيل بتفسير الممارسات الطقسية والكرنفالية المشحونة في الأدب؛ من حيث أنّ الكرنفالية تندرج ضمن كلّ ما يتعلّق باهتمامات الإنسان الفلسفية؛ وبأروع وأغرب الأوجه التي تتبلور في التقاليد وماضي شعب، ولهذا العلة فإنّ النظرية على قدر عال من الأهمية بالنسبة لدراسة الأعمال الأدبية من مختلف البلدان؛ فيمكننا بالتالي رسم حدود حقل اشتغال الأبحاث حول الكرنفالية بـ: علم الأعراق والأنثروبولوجيا وعلم الأساطير، الفلكلور، وتاريخ الأديان...

إنّ الظاهرة الكرنفالية تتميّز بمتغيّرات متنوّعة، وفروق نوعية مرتبطة باختلاف الفترات الزمنية والشعوب والاحتفالات باعتبارها منعزلة.<sup>11</sup> وفي الحقيقة أنّ الكرنفالية هي ظاهرة سوسيو ثقافية تعبّر عن الفرحة النفسية، ومبرر قويّ عن تفجير العبقرية الشعبية تحت وطء النظام السياسيّ الإيديولوجيّ الذي يقهرها، ومن مظاهرها:

- ✓ **زيارة الصّريح** : عادة ماتمّ قبل الدّخول في الحضرة، وذلك بالدّهاب إلى الرّبارة بأقدام حافية رمزا لقدسيّة المكان وطهارته، ولعلّ هذه الظّاهرة تعدّ قاسما مشتركا عند جميع الشّعوب، وقد ورد مثل هذه الصّورة الرّمزيّة في القرآن الكريم في قوله تعالى: "فاخلع نعليك إنّك بالوادي المقدّس طوى".
- ✓ **الموسيقى**: هي سمة أخرى خاصّة بالكرنفال حيث تستعمل فيها مختلف الآلات الموسيقية: إنّ هذا الوجه الكرنفاليّ للذكر نجده في إحدى قصائد سيدي لخضر بن خلوف في قصيدة له بعنوان: "لولا انت".

لو كنت من اهل العقول نفنى شبابي بالصلاة على الرسول في كل حين

بالعبرانية و باللسان العربي والكف مع الدف و الرباب الحنين<sup>12</sup>.

### \*-المخيل الشعبيّ ومعركة مزهران:

هي المعركة التي دارت بين الجيش الجزائريّ والإسبان، وكان سيدي لخضر بن خلوف أحد أبطالها بدأت يوم 22 أوت 1558م، و انتهت يوم 26 أوت 1558م؛ قُتل خلالها الكونت دالكونيت، كما أسر ابنه دون مارتن بعد أن بلغ عدد القتلى والأسرى 12000؛ حتّى أنّ سيدي لخضر بن خلوف شبّهها بغزوة بدر الكبرى، هذا من جانب السرد التاريخي، غير أنّ المخيال يبحث في طيات هذه الأحداث (معركة مزهران) عن الخارق والعجيب الذي يسمح بالتعرّف على منزلة المسلم المتأنّقة، إنّ شخصيّة سيدي لخضر بن خلوف المتصوّفة والمدعومة بالولاية التي هي من العقيدة بمكان في نفوس المسلمين؛ ليس معها شكّ يجعلنا نقرّ بكلّ ما ذهب إليه المؤرّخون من تأكيد ورع وتقوى هذه الشخصيّة، إلاّ أنّ بحثنا عن المخيال في نصوص الخوارق المنسوبة إلى سيدي لخضر بن خلوف

يجعلنا ننظر إلى المسألة خارج منظور الدّين، وداخل منظور تصوّر الإنسان لترتيب الفضاء الإسلاميّ بالاستناد إلى أحداث عجيبة منسوبة إلى هذه الشّخصيّة، وبهذه الصّيغة فإنّنا سنتعامل مع تراث غلب عليه التّراكم، وبرزت الحاجة الأكيدة إلى إعادة ترتيبه وضرورة تصنيفه قصد فهمه في سياقه.

### \*-النّخلة في المخيال الشّعبيّ:

روي في الحديث النبويّ الشريف "صخرة بيت المقدّس على نخلة من نخيل الجنّة وتلك النّخلة على نهر من أنهار الجنّة." <sup>13</sup> في حديث آخر سأل رجلٌ من الصحابة الرّسولَ صلّى الله عليه وسلّم: "هل في الجنّة نخل فإنّي أحبّ النّخل." فقال صلّى الله عليه وسلّم: "والذي نفسي بيده لها جذوع من وجريد من ذهب." <sup>14</sup> كما ورد ذكر النّخلة في القرآن الكريم أكثر من عشرين آية.

نستطيع ممّا سبق أن نؤكّد أنّ هذه الشّجرة المباركة التي اعتبرها المسلمون من أشجار الجنّة رمزٌ إسلاميٌّ، وليس أدلّ على مكانة النّخلة لدى المسلمين مما روي أنّ رسل ملك الرّوم إلى الخليفة عمر بن الخطاب؛ كانوا قد حدّثوه عن الخصال العظيمة التي تميّز بها هذه الشّجرة، فكتب ملك الرّوم إلى الخليفة "عمر" يستفسر منه عن صدق حديث رسله فكتب إليه عمر قائلا: "من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى قيصر الرّوم، إنّ رسلك قد صدقوك، هذه الشّجرة عندنا وهي التي أنبتها الله تعالى على مريم حين نفست بعيسى، فاتق الله ولا تتخذ عيسى إلها من دون الله، إنّ عيسى عند الله كمثّل آدم خلقه من تراب، ثمّ قال له كن فيكون الحقّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين." <sup>15</sup>

فالنّخلة بهذا الرّمز تعدّ نعيما وظلالا في الحياة الدّنيا؛ كما هي كذلك في الآخرة لهذا كانت وصيّة سيدي لخضر بن خلوف بأن يدفن قرب تلك النّخلة المحبوب ظلّها عنده، حيث قال في قصيدته "الله الحمد زاد فينا":

نظلل في ظلها البعيد

النخلة منزلها حدايا

وفي قصيدة أخرى بعنوان (بقاوا بالسلامة) :

حداها يكون قبري يا مسلمين <sup>16</sup>

نخلة مثبته تلحق بعد اليوس

هذه النّخلة هي امتداد لصورة النّخلة التي أتت للرّسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول في قصيدته: (سيد

المهاجرين وسيد الأنصار)

ليك جات النخلة المجدبة وحيات من كفك روات العرب يا رسول رب البيت <sup>17</sup>

### \*-المخيل واللّون:

الجدير بالذّكر أنّ المتصوّفين المسلمين؛ عبّروا بتسلسل الألوان للإشارة إلى الأحوال الرّوحيّة وتبدّل صفات المرء عند سلوكه في الطّريق. وقال بعضهم: الأبيض يوافق الإسلام والشّريعة، والأصفر الإيمان، والأزرق القاتم الإحسان، والأخضر الاطمئنان، والأحمر العرفان، والأسود الهيمنان ونور الدّات ونهاية الألوان. وفي قصائد سيدي لخضر بن خلوف تتجلّى ثنائية لونين على وجه الخصوص هما: الأخضر والأسود (الأكحل).

الأسود في حال العتاب واللوم إنّه يبحث عن الطّهر والتّخليص من أدران الحياة، يقول في قصيدة: (ألف  
استمثلوا كلامي )

يا اللّاييم لا تلوم الأكلحل بالجهرة إذا زام الرعد وزاد غيمه جلعالي<sup>18</sup>

\*-المتخيّل والرّؤيا:

تقوم قصائد سيدي لخضر بن خلوف في كثير من المواضع على الرّؤيا (والذي نستنتجه هو أنّ الرّؤيا  
بضربها تقنيّة أساسيّة من تقنيّات إنتاج المتخيّل في الفكر الإسلاميّ).<sup>19</sup> إذ تطالعنا كتب السيرة النبويّة على كثير  
من القصص المبنية على الرّؤيا؛ من ذلك قصّة شقّ الصّدر المبنية على تقنيّة الرّؤيا؛ إذ قال الرّسول صلّى الله عليه  
وسلّم (بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان [...]) فأوتيت بطست من ذهب ملآن حكمة وإيمان، فشقّ  
من التّحر إلى مرق البطن، ثمّ غسل البطن بماء زمزم، ثمّ ملئ حكمة وإيمانا.<sup>20</sup> فرمزيّة شقّ الصّدر تتكرّر  
عند سيدي لخضر بن خلوف لكنّ الفاعل هذه المرّة هو الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وليست الملائكة. يقول في  
قصيدته: (يا كوثر اللبن)

انت شرحت بالذكر والمديح لساني وعمرت صميم صدري وساير الأسراري<sup>21</sup>

خاتمة:

وفي الأخير أقول بأنّ شخصيّة سيدي لخضر بن خلوف تندرج ضمن تطوّر السنن الثقافيّة، وما يتطلّبه أفق  
الانتظار عند القارئ، فظهرت بذلك التّفصيلات والتّفريعات ضمن الرّوايات التي كان قد رواها الأوائل، ومثّلت  
هذه الرّوايات الجديدة رصيذا تراثيا واسعا؛ أضفت عليه الأجيال اللاحقة هالة من القداسة.  
كما تمكّنت الرّوايات العجيبة من اختراق الأزمنة والأمكنة لأنّها تسهم بشكل أكيد في صياغة تصوّر للفرد  
والجماعات في علاقتهما بالكون، وهو تصوّر ضروريّ يشعر الإنسان بتأصيل كيانه في الوجود ويدفعه ذلك إلى  
الإسهام في تشييد أمة الإسلام.

الإحالات:

\*يمكن في هذا الإطار أن نقول متخيّل شعبيّ، متخيّل صوفيّ، متخيّل علميّ...

1- محمد أركون، الفكر الإسلاميّ، ترجمة هاشم صالح لافوميك و.ك ط، 1993م، ص: 36.

2- gilbert duraind –les structures Anthropologique de l’immaginaire-  
bordass 1992 page 39.

3-maleck chebel –l’immaginaire Arabo-musulmane p-i-f 1993 p19.

4- منصف الجزار، المخيال العربيّ في الأحاديث المنسوبة إلى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، دار محمد عليّ للنشر، تونس، ط1،  
2007م، ص: 8- 9 .

-M.iliade –mythes ,reves et mysteres –ed gallimard paris 1957p131.5

6- منصف الجزار، المخيال العربيّ في الأحاديث المنسوبة إلى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ص: 13 .

7- عبد الرّحمن بدويّ، تاريخ التّصوّف الإسلاميّ، وكالة المطبوعات، الكوت، ط2، 1978م، ص: 18 .

8- نفسه، ص: 75 .

- 9- عاطف جودة نصر، المخيال مفهومًا ته ووظائفه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984م، ص: 116 .
- 10- المرجع نفسه، ص: 109.
- bahtine –l'œuvre de problématique de la poétique de DOSTOIEVSKI - M.11  
op,cit,p 175.
- 12- سيدي لخضر بن خلوف، ديوان سيدي لخضر بن خلوف شاعر الدين والوطن، جمع وتقديم: محمد بن الحاج الغوثي  
بخوشة، نشر ابن خلدون، تلمسان، دط، ص: 92 .
- 13- التيسابوري (أبي إسحاق): قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، دار الكتاب العلمية، بيروت، 1985م، ص: 04 .
- 14- عبد العزيز الشناوي: الجنة ونعيمها من القرآن والسنة، مكتبة الإيمان المنصورة، د.ط، ص: 100 .
- 15- الدريمي كمال الدين، حياة الحيوان الكبرى، ج 01، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، ص: 222 .
- 16- ديوان سيدي لخضر بن خلوف، ص: 99 .
- 17- نفسه، ص: 65 .
- 18- نفسه .
- 19- بسلام الجمل، ليلة القدر في المتخيل الإسلامي، مؤسسة القدموس الثقافية، سورية، ط1، 2007م، ص: 82 .
- 20- البخاري، الجامع الصحيح، ج2، ص: 422 .
- 21- ديوان سيدي لخضر بن خلوف، ص: 99 .